ثقافة وفنون

أفاعي ساروق الحديد

تتميّز بظهورها في أشكال مبتكرة على جِرار فخارية



جِرار من موقع ساروق الحديد في إمارة دبي

محمود الزيباوي

نُشر: 17:52-20 مايو 2025 م . 23 ذو القِعدة 1446 هـ

تحضر صورة الأفعى وتتعدّد تقاسيمها التشكيلية في مجموعات مختلفة من القطع الأثرية مصدرها مواقع متفرقة من شمال شرقي الجزيرة العربية، تتبع في زمننا دولة الإمارات العربية وسلطنة عُمان، منها موقعا البثنة ومسافي في إمارة الفجيرة، وموقعا القصيص وساروق الحديد في إمارة دبي، وموقع

الرميلة في إمارة أبوظبي، وموقع مويلح في إمارة الشارقة، وموقع سلوت في سلطنة عُمان. تحتل أفاعي ساروق الحديد في هذا الميدان موقعاً بارزاً، حيث تتميّز بظهورها في أشكال مبتكرة على جِرار فخارية من الحجم الكبير حافظت على تكوينها الأصلي بشكل كامل.

يبعد موقع ساروق الحديد نحو 68 كيلومتراً جنوب شرقي مدينة دبي، ويمتدّ ضمن سلسلة من الكثبان الرملية، في الجزء الجنوبي الغربي من منطقة «سيح حفير»، حيث يجاور حدود إمارة أبوظبي. بدأت «دائرة التراث العمراني والآثار» التابعة لبلدية دبي باستكشاف هذا الموقع في مطلع القرن الحالي، وتعاقدت مع بعثة تابعة لـ«دائرة الآثار العامة في الأردن» لإجراء عمليات المسح والتنقيب على مدى خمس حملات متعاقبة. فاقت نتائج هذه العمليات كل التوقعات، وتبيّن أن موقع ساروق الحديد يمثّل بثراء ميراثه الأثري حجر زاوية في دراسة مراحل تطوّر هذه الناحية من جزيرة العرب خلال العصر الحديدي. تعاقدت السلطة المحلية مع بعثات غربية علمية عدة لاستكمال هذا الكشف بشكل معمّق، وأدّت حملات التنقيب المتواصلة إلى العثور على كمّ عائل من اللقى الأثرية، منها مجموعات متنوعة من القطع المعدنية والقطع الفخارية، يجمع بينها حضور صورة الأفعى في أشكال متعدّدة.

تظهر الأفعى على شكل مجسمات برونزية تجاوز عددها المائة، دخل قسم منها متحفاً خُصّص لميراث ساروق الحديد الأثري، افتُتح في صيف 2016 في منطقة الشندغة في بر دبي. وفقاً لتقليدٍ سادَ كما يبدو في شمال شرقي الجزيرة العربية. تأخذ هذه الأفاعي البرونزية شكلاً ملتوياً، وتبدو كأنها تتحرك عبر سلسلة من التقوّسات المتوازية. يبلغ طول أكبر هذه المجسّمات 20 سنتيمتراً، وأصغرها 5 سنتيمترات، وتتفاوت أشكال رؤوسها، فبعضها يحمل رأسا مدوّراً صغيراً لا يبلغ طوله السنتيمتر الواحد، والبعض الآخر يحمل رأساً بيضاوياً يحدّ طرفه الأعلى شدق ناتئ. في المقابل، يأخذ ذيل هذه الأفاعي في أغلب الأحيان شكلاً مروّساً يحاكي تكوين الثعبان الطبيعي. تظهر هذه المجسّمات في وضعية مسطّحة كأنها تزحف على الأرض، ويرفع عدد منها رؤوسه نحو الأعلى بشكل طفيف، فيما يظهر هذا الرأس بشكل منتصب في حالات نادرة. تغيب التفاصيل الدقيقة عن هذه المجسّمات، غير أنها تظهر في عدد محدود من النماذج، وتتمثّل في ظهور فكّي الشدق المفتوحين.

تظهر الأفعى في شكل مغاير من خلال مجموعة من الأسلحة المعدنية، حيث تحلّ ضمن إطار النقش المعتمد في تزيين عدد محدود من مقابض الخناجر، ويشكّل هذا الظهور خاصيّة يتميّز بها موقع ساروق الحديد في هذا الميدان. كذلك تظهر الأفعى بشكل ناتئ في مجموعة من القطع الفخارية، وتبدو هذه المجموعة متواضعة من حيث العدد قياساً إلى مجموعات أخرى مشابهة خرجت من مواقع أخرى في الإمارات وفي سلطنة عُمان، غير أنها تتميّز بتقاسيم غير مألوفة في هذا السياق، تتجلّى في جِرار وصلت بشكل كامل ولم يمسّها أي تلف، وهي جِرار من الحجم الكبير، يتفاوت طولها بين 76 سنتيمتراً و53 سنتيمتراً، وأهمّها فنياً تلك التي تُعرض اليوم في ركن من أركان متحف ساروق الحديد في بر دبي.

أفاعي ساروق الحديد توجد في مواقع متفرقة شمال الجزيرة العربية وتحتل موقعاً بارزاً بالكشوف الأثرية إذ تتميّز بظهورها في أشكال مبتكرة على جِرار فخارية

تعتمد هذا الجِرار على صيغة تزيينية جامعة تتعدّد تقاسيمها وتتحوّل بشكل لافت. تلتفّ حول وسط الجرة سلسلة من الأطواق الناتئة المجردة، يتغيّر عددها بين نموذج وآخر. تحلّ الأفاعي الناتئة في هذه المساحة إلى جانب الأطواق، وتظهر في وضعية الزحف التقليدية، متّجهة من اليسار إلى اليمين في أغلب الأحيان، غير أن بعضها يظهر في وضعية معاكسة، زاحفاً من اليمين إلى اليسار، ممّا يهب هذه الحلة طابعاً حيوياً خاصاً. تتميّز هذه الأفاعي بنحول بدنها المرقّط، وتبدو رؤوسها مثلثة الشكل، ويظهر في مقدّمة كل منها شق أفقي يمثّل الفم.

تجمع إحدى أجمل هذه الجِرار بين خمس أفاعٍ تحضر في وضعيات متعّددة. في القسم الأعلى، تظهر الأفعى الأولى وهي تلتف حول عنق الجرَّة، ملامسةً برأسها طرف ذيلها. في القسم الأوسط، تظهر أفعى ثانية تزحف من اليسار إلى اليمين، رافعةً رأسها في مواجهة رأس أفعى ثالثة تحضر بشكل لولبي في الجهة المعاكسة. من خلف هذه الأفعى اللولبية الملتفة حول نفسها في ثلاث لفات، تحضر أفعى رابعة تزحف كذلك من اليسار إلى اليمين، وتواكبها أفعى خامسة أصغر حجماً، تزحف من فوقها في حركة موازية.

يعلو هذه الجرة الاستثنائية غطاء متوّج بمقبض صيغ على شكل نصف قوس، ويبدو هذا المقبض أشبه بأفعى صغيرة، وتحدّه من كل جهة أفعى صغيرة الحجم. يزحف أحد هذين الثعبانين الطفلين من اليسار إلى اليمين، ويزحف الآخر من اليمين إلى اليسار، ويبدو رأساهما متعاكسين، ويتميز كلّ من بدنيهما المتوازيين بأربعة تقوّسات ترسم حركة زحفهما التقليدية.

مواضيع

أدب

آثار